



كان موعدنا مسجد مطار صبيحة الدولي باسطنبول. كن يفترشن معاطفهن و ينمن في عمق..
كان واضحًا جداً من طريقة نومهن أنهن لم يذقن طعم النوم منذ أيام.
يلتفن في ملاءات خشنة رغم أن المسجد كان مكيفاً.. شنطهن الكبيرة موزعة بشكل عشوائي في كل أرجاء المسجد الصغير..

ها هو آذان الظهر يرتفع شيئاً فشيئاً.. تستيقظن، تتواطأن بتناوب ثم تهربن لإقامة الصلاة.
لا شيء يخلفهم عن موعد الصلاة.. لا البرد الذي يشعرن به، و لا النعاس الذي يسد أعينهن فيفتحنها في تناقل محاولاتِ رؤية السجادة و السبحة.

Buyur cocugum : تقترب إحداهن - امرأة في متوسط العمر وقد دخلت لتواها إلى المسجد. من ابن إحداهن و تقدم إليه عصير رمان تظاهر الطفل بعدم رغبته في العصير، حاول أن يوضح للسيدة الطيبة أنه لا يريد، تتم كلمة "شكراً" كي يصرفها عنه، ثم أضاف متلقلاً "لا أريد". يبدو أن السيدة مصرة على تناوله للعصير.
لكن لغة الطفل الوديع حالت دون أن تستوعب السيدة التركية منه شيئاً.

مد يده مستسلماً والتقط عليه العصير من يديها وابتسم..
كان الطفل ابنًا لسيدة ترتدي خماراً أخضرًا ومعطفاً أسوداً أتت قبل ساعتين مع ابنتها وطفلها، وكالبقية تماماً غطوا في النوم إلى أن رفع آذان الظهر.

أحاول أن أبقى صامتةً وأنا أراقب ماذا يجري في المسجد. أريد أن أتأكد فقط أن كل القابعات هنا من سورية. في العادة أسعى كي لا تحدثني إحداهن دون حاجة.

لا رغبة لي في سرد حكاياتي الطويلة على عابرة لن أرى وجهها مرة أخرى، ولا شهية لي في الاستماع إلى أحاديث الكثيرات منهن عن السياحة والتسوق في تركيا.

لكن الوضع يختلف مع أم سورية تلف أبناءها حولها ولا تكاد تتحدث إلا اضطراراً.
أفتح حاسوبي الصغير وأبدأ في قراءة إحدى الروايات المترجمة التي اقترحها علي زوجي.
يبدو أن جميعهن يتحدثن باللهجة السورية. كان واضحًا من طريقة لفهن للخمار أنهن عربيات أو على الأقل لسن تركيات.

لأن التركيات اعتدن أن يرفعن خصلات شعرهن إلى مستوى يسمح بثبات الخمار على الرأس دون حاجة لوضع الدبابيس.

تنوسد إحدى العجائز معطفها و تستلقى نائمة..

ماذا تفعل هنا؟ من أين أتین؟ وإلى أين تذهبن؟

تهاجم ذهني أسئلة صحفي بسيط أتعبه الفضول لكن سذاجة أسئلته لا تشفى غليل ما يبحث عنه.

كيف يمكنني أن أحدهن؟

شعرت فجأةً أنتي في مهمة وكلتها لنفسي، وأنتي مسؤولة عن اكتشاف حقيقة الوضع السوري من سوريين لا من قنوات الإعلام التي تتنافس على الصورة الصادقة.

الصورة الصادقة بين يدي الآن، سيدات سوريات يفترشن معاطفهن وينمن. مرهقات.. وكأنهن ناجيات من الموت.

فتح إحدى الفتيات باب المسجد مستعجلة وتسأل سيدة تجلس القرفصاء وتسبح، عن موعد صلاة العصر

"? I kindi namazi kacta okunuyor "

لا أكاد أرى السيدة السورية بشكل واضح.. هناك جدار على شكل أسطواني يفصلنا.. أغتنم الفرصة وأتطوع بتقديم الإجابة عوضاً عنها

" birazdan okunur "

تلتفت إلي وتبتسم شاكراً.. أدرك أن هذه قد تكون فرصتي الأخيرة في فتح حوار مع إحداهن.

فأنا لا أعلم في أي وقت قد تغادرن المسجد.

اقترب منها رويداً رويداً وأطلب منها أن تراقب أمتعتي للحظات لأنني مضطربة للحديث في الهاتف خارجاً.

تنفاجأ كيف بي أتحدث العربية ثم تسألني

" من أين أنت؟ "

أجيبها دون أدنى تفكير أنا من المغرب

كنت أعلم أن أوجاعها كفيلة بأن لا تسألني شيئاً آخر.

كان تسألني مثلاً كيف أتحدث بالتركية؟

أو ماذا أفعل في تركيا؟

و ربما تلتفت كل النساء في فضول إلى خاتم زواجي وتبدأ في السؤال عن زوجي و عمله والله أعلم إلى أين تنتهي الأسئلة بنا.

عدت بعد لحظات قليلة وجلست هذه المرة قربها.

كانت تجلس إلى جانبها سيدة طاعنة في السن، كانت ملامحها قريبة إلى جدتي لأمي، كان حاجبها كثيفين وعيناها واسعتين لكنهما لم تكونا حضرا وتين كجدي.

كانت تنظر إلى وتسبح بصوت مسموع.

لعلك من سورية؟

توجهت إلى السيدة بسؤالها وكأنني غير متأكدة من موطنهن نحن من سوريا إدلب.

و تدبر دمعتين حزينتين ثم تواصل: أبناؤنا وشبابنا هناك تحت القصف.. زيتوننا أحرقه الرصاص.. بيوتنا.. لم تعد لنا بيوت.

نحن في إسطنبول منذ أربع أشهر. إلى أين إن شاء الله؟

لم أر أن الدعاء لهم بالنصر قد يجمع قلبه المشتت بفعل الحرب.

كانت كلماتها كافية كي أدرك أن نساء سورية تهرب من أرضهن المعطاءة بحثاً عن الأمن، تاركات خلفهن كل أموالهن وأحبابهن..

هذه أمي. كانت تشير إلى السيدة العجوز التي تشبه جدتي.. ثم تواصل: سذهب إلى دبي عند أخي. أمي مريضة جداً، أصبت بجلطة دماغية جراء الثورة ولا تذكر أي شيء، أجرينا لها عملية في مدينة أنطاكيا على الحدود التركية السورية، وقد أخذوا منها ما لم يكن في الحسبان من مال.

أخي متزوج ويعيش في دبي مع زوجته وأبنائه منذ سنوات، اقترح علينا أن تعالج هناك شفافها الله.

أتمت في خجل من نفسي..
من الحاسوب الذي أحمله..

من الهدايا التي ستسعد أمي وأختي..
ثم أضيف قائلة: الحياة صعبة في إسطنبول..

تنظر إلى عينين فارغتين، وكأنني وضعت يدي على جرح آخر لم يكن في الحسبان.

تتأملني قليلاً، تنهد في عمق ثم تقول لي: نستأجر بيتاً صغيراً بقيمة 500 دولار، يضم أربعين نفراً..
أخي من يصرف علينا وقدر الله خيراً أن بعنا بعض أراضينا في سورية قبل الثورة بأشهر..
أريد أن أتمشى.

أخيراً تكلمت السيدة العجوز.. تحاول جاهدةً أن تقوم من فراشها، أمد يدي لها كي أساعدها لكن ابنتها تخبرني أن الطبيب نصحها بفعل ذلك بنفسها.

ها هما تغادران المسجد يداً في يد، وأبقى أنا متسمراً في مكاني دون حراك..
أ هكذا يتحرك الثوار السوريون، يداً في يد؟

أكلهم ينهمكون فجأة هكذا وينذهبون إلى حيث لا نعلم؟
أعود إلى مكاني الأول.. إلى حاسوبي، أفتح الرواية من جديد.
لا شهية لي في متابعتها الآن..
أريد أن أكتب..

أتكتبين؟ صوت نسائي آخر يقترب مني
مم آه.. نعم.. أقصد سأكتب
أنا من حلب، والكتاب يعرفون بعضهم البعض صديقتي
تبتسم وتمضي..

المصادر: